

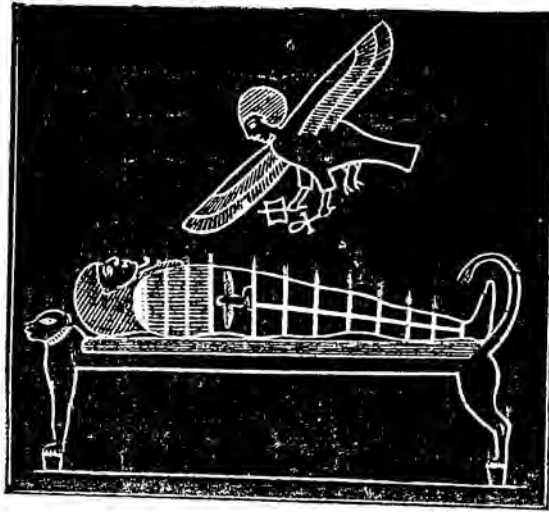
الروح وما هيته

للسيد محمد الحريري

— ٣ —

عالم الأمر — الحقيقة المحمدية — وحدة الوجود

عالم الأمر



قدمنا في العدد الماضي من هذه
المجلة الكلام على الروح من حيث
اتصالها بالكبرياء والأثير، والروحانية
الحديثة، والآراء الصوفية. والآن
نتكلم عن عالم الأمر وهو أحد العوالم
الثلاث التي شرحتها سابقاً.

اختلف علماء الصوفية في فهم
عالم الأمر، وحق لهم هذا الاختلاف
لدقة الموضوع من جهة، واختلاف
فهم كل عن الآخر، وتنوع استعداد

(صورة خيالية تمثل الروح عند قدماء المصريين)

كل شخص فيما أهل له من التجلي والألهام المقدر له، مما يتوهمه أنه عالم الأمر.
فقد ذكر الأمام عبد الكريم الجيلي في كتاب «الإنسان الكامل» عند تفسير قوله
تعالى (وعنده أم الكتاب) أن هذه العنيدة هي عبارة عن ماهية كنه الذات، المعبر عنها
من بعض وجوهها بماهيات الحقائق التي لا يطلق عليها اسم ولا نعت، ولا وصف بوجود
أو عدم أو حق، أو خلق. والكتاب هو الوجود المطلق الذي لا عدم فيه وكانت ماهية
الكنه أم الكتاب، لأن الوجود مندرج فيها اندراج الحروف في الدواة التي بها المداد
فكذلك ماهية الكنه لا يطلق عليها اسم الوجود ولا اسم العدم لأنها غير معقولة، والحكم
على غير المعقول أمر محال، فلا يقال بأنها حق ولا خلق ولا عين ولا غير، ولكنها عبارة عن
ماهية لا تنحصر بعبارة إلاولها ضد لتلك العبارة من كل وجه، وهي الألوهية باعتبار، وباعتبار
آخر هي محل الأشياء ومصدر الوجود. والوجود فيها بالفعل، ولو كان العقل يقتضي أن يكون

الوجود في ماهية الحقائق بالقوة ، كوجود النخلة في النواة ، ولكن الشهود يعطى الوجود فيها بالفعل لا بالقوة للمتضى الذاتى الألهى ، لكن الأجمال المطلق هو الذى حكم على العقل بان يقول إن الوجود في ماهية الحقائق بالقوة بخلاف الشهود ، لأنه يعطيك الأمر المجمل منفصلاً على أنه في نفس هذا التفصيل باق على إجماله ، وهذا أمر ذوقى كشفى شهودى ، لا يدرك بالعقل من حيث نظره المقيد ، لكنه إذا وصل إلى ذلك المحل ، وتجلت عليه الأشياء قبلها وأدركها كما هي عليه — يقصد هنا الأستاذ الجليل أن هذا الفهم الشهودى هو بذات الروح الذى ليس للعقل فيه مجال ، لأنه جمع بين الأضداد ، والعقل يزوى عند ذلك ويتلاشى هو وسائر ذرات الجسم تحت سطوع شمس ذات الروح ، ولكنه لا يمكنه نكران ما علمه أخيراً بعد عودته لحالته الطبيعية ، فان مشاهدته الروح يكسب العقل حقيقة ما شاهدت ، وهذا إذا قاسه بقوانينه وجرده لا ينطبق عليها ، وهنا يفهم علما بحاسة أخرى خارجة عن قيود العقل ، وهذا سبب الخلاف بين أهل الشهود والكشف ، كما ساهم الصوفية ، وهم أصحاب الانطلاق الروحى عند الروحية الحديثة ، ونفس هذا الكشف وهذا الانطلاق يختلف باختلاف علم كل واحد ، فيختلفون في تصوير نتيجة الفهم .

ثم ذكر الجليل أيضاً في تفصيل روح القدس أن روح القدس هو روح الأرواح ، وهو المنزه عن الدخول تحت حيطة كن ، فلا يجوز أن يقال فيه إنه مخلوق لأنه وجه خاص من وجوه الحق قام الوجود بذلك الوجه فهو روح لا كالأرواح ، لأنه روح الله ، وهو المنفوخ منه في آدم . وإليه الإشارة بقوله تعالى « ونفخت فيه من روحي » فروح آدم مخلوق وروح الله ليس بمخلوق ، فهو روح القدس أى أنه الروح المقدس عن النقائص الكونية ، وذلك الروح هو المعبر عنه بالوجه الألهى في المخلوقات أى أمر الله « فأينأتولوا فثم وجه الله » لأنه عبارة عن الوجه الألهى القائم بالوجود ، فذلك الوجه في كل شيء هو الأمر الألهى السارى في جميع الارواح ، إذ أن لكل شيء من المحسوسات روحاً مخلوقاً قامت به صورته ، فالروح لتلك الصورة كالمعنى للفظ ، ثم إن لذلك الروح المخلوق روحاً إلهياً قام به ذلك الروح ، وهى صفة قيومية الحق في الخلق ، ومن هنا أخطأ بعض الفلاسفة الأقدمين في فهم هذه الحالة ، لأنهم عند ما تبين لهم أن الله مطلع على كل شيء في ذرات الوجود ، وفي أنفسهم قرروا بقيد أفكارهم أن الله هو حقيقة سارية في كل شيء ، مطلعة على كل شيء ، بحالة يشتم منها رائحة الحصر والتقييد ، معتقدين أنهم وصفوا الله بأعلى وصف ، مع أن هذا مناف للتزيه المطلق الخارج عن كل قيد وفقط لمحو وجهها من أوجه علم الروح المتصل بعالم الأمر بحالة متلبسة بين انطلاق فهم الروح وقيد فهم العقل ، فكانت النتيجة هذا التشبيه المنافي للصفات القدسية الإلهية ، وهذا غاية

ما يمكن أن يصل إليه المتجول بعقله في الأليات ، دون الاستناد إلى تتبع وحى منزل على لسان نبي مرسل ، للخروج من قيد الجسمانية الكلية ، والفهم بالتلقى الروحي على طريقة حضرات الأنبياء صلوات الله عليهم ومن اقتدى بهم من كمل أهل التحقيق العلماء بالله ، الوارثين لحضرات الأنبياء .

وقد أجمع محققو الصوفية ومعهم الامام محي الدين بن العربي على أن الملك المسمى بالروح والمسمى في اصطلاحهم بالحق المخلوق ، والحقيقة المحمدية قد نظر الله تعالى إلى هذا الملك بما نظر به إلى نفسه ، خلقه من نوره وخلق العالم منه ، وجعله محل نظره من العالم ، ومن اسمائه أمر الله وهو أشرف الموجودات وأعلاها مكانة وأسامها منزلة ليس فوقه ملك ، وهو سيد المقربين ، وأفضل المكرمين ، أدار الله عليه رحي الوجود ، وجعله قطب فلك المخلوقات ، له مع كل شيء خلقه الله تعالى وجه خاص به ، ومنه خلقت الملائكة جميعا ، فنسبة الملائكة إليه كنسبة القطرات إلى البحر . هذا هو المعبر عنه بالحقيقة المحمدية عند الصوفية ، والوارد فيه حديث سيدنا جابر ، لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أول ما خلق الله يارسول الله ، قال « نور نبيك يا جابر » .

الحقيقة المحمدية

الحقيقة المحمدية وهي ما يمكن أن يتعقل من صدور الأمر الألهي في أول الظهور ، وهذه الحقيقة لها طرفان ، طرف غير معقول ، وهو المتصل بالحق سبحانه وتعالى ، وطرف معقول تعقل وهي لا يمكن تحقيقه على وجه تام ، وقد يعبر عنه بالروح الأعظم وهو الروح الانساني مظهر الذات الألهية من حيث ربوبيتها . ولذلك لا يحوم حولها حائث ولا يروم حولها رائم ، ولا يعلم كنهها إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد يعبر عنه بالعقل الأول أو النفس الواحدة ، أو الروح الكلية المقابلة للمادة الكلية الأصلية ، وإن كانت هذه فرع تلك ، بواسطة الابتداع الألهي في أول الخليفة ، وهي المعبر عنها بجوهر الهباء المعقول ، أصل أصول المواد ، وقد يطلق عليها أيضاً الحقيقة الاسمائية ، وهو أول مخلوق خلقه الله ، وهو الخليفة الأكبر ، والجوهر التوراتي ، معنى ما جاء في حديث سيدنا جابر الأنصاري السابق ذكره وقد يسمى باعتبار الجوهرية نفساً ، وباعتبار التوراتية عقلاً أولاً ، وكما أنه له في العالم مظاهر كثيرة وأسماء متعددة كالعقل الأول والقلم الأعلى ، والنور الذاتي الساري في كل الممكنات بلا حصر ولا تقييد عن حكم ماهيته فله في العالم الصغير الأنساني مظاهر وأسماء بحسب مظاهره ومراتبه في اصطلاح الصوفية وغيرهم « كالسر ، والخفاء ، والأخفى ، والروح والسرمان ، والقلب ، والكلمة والروح ، والفؤاد ، والعقل ، والنفس الخ »

وإن حقيقة الروح الأنساني هي من هذا النور أول ماظهر من الأمر الألهي الممكن توهمه ودركه بنفس ذات الروح إدراكاً إشرافياً ، لا إحاطياً يقابل إشراف العقل على مبدأ سر الروح وعجزه عن استيعاب ماهيتها كما سبق التقرير في أول المبحث ، وهذا الإشراف يختلف باختلاف أصل الفطرة الروحية وصفائها وقربها واتصالها من هذا النور المخلوق المواجه للحق المطلق ، مواجهة خارجية ، طبعاً عن التعينات المكانية .

ومن هنا يفهم معنى صلاة الامام ابن مشيش أستاذ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنهما وما سبجت فيه روحه الشريفة واتصالها بهذا النور إذ يقول « اللهم صل على من منه انشقت الأسرار ، وانفلق الأنوار وفيه ارتقت الحقائق ، ونزلت علوم آدم فاعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم ، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله موقنة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ، ولا شيء إلا وهو به منوط ، إذ لو لا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط صلاة تليق بك منك إليه ، كما هو أهله ، اللهم إنه سررك الجامع الدال عليك ، وحجابك الأعظم القائل لك بين يديك » ، إلى أن قال « وزجني في بحار الأحدية وانشلي من أحوال التوحيد ، وأغرقي في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ، ولا أحس ، إلا بها » وهي حالة وحدة الوجود المصطلح عليها عند الصوفية .

وحدة الوجود

وأصح تعبير لها هي « وحدة الشهود » لا وحدة الوجود ، أي وحدة شهود هذا الرائي لاتصال روحه بهذه الحقيقة المحمدية السارية في كل شيء ، وقد يعبر عنها بحالة الجمع في أولها وجمع الجمع في نهايتها ، وهي مذلة لكثير من الصوفية الذين لم يتموا سبجاتهم ، أو الفلاسفة الذين لم يسندوا رحمة إلهية في كنف شريعة سماوية ، ولذلك توهم كثير منهم صفة الحلول والاتحاد وتفوهوا بكلمات لا تنطبق على الحق في شيء ، حيث تسرعوا في ابتداء هذا المشهد قبل أن يتحققوا بكل مراميهم ، وفاتهم أنه ما هو إلا تحقق علمي برجوع فرع هذا النور الجزئي إلى أصله الكلي كما كان قبل اندماجه في الماديات ، والحال أنه لم يزل مرتبطاً بمادته ، ومهادق خيط هذا الارتباط فلا سبيل لتطبيق علم رؤيا الروح لهذا النور الأول على فهم عقل المادة ، بعد إيجاد هذا العالم المادي إلا بضرورة الخلط ما بين إطلاق فطرة الروح ، وتقيد تعقل العقل الذي لا يمكن الخروج منه بتاتاً مادام في قيد هذا الكون ، ولا يمكن التحقق لهذا النور الأول إلا بانقصال الروح عن الجسد والاتصال بعالمها ، وهذا لم يحصل لمن يريد التعبير عن كنه هذه الحقيقة ، ولو فرض وانفصلت روح وأرادت أن تخاطبنا بما هي فيه لخاطبتنا بحسب ما هي مستغرقة فيه ، وبتعبير يليق بذات الروح والأرواح المرتبطة بأجسامها ، في معزل عن

هذا الفهم، إذ لكل عالم حكمه ، وهذا سبب الخلاف الواقع بين آراء الفلاسفة وبعض الصوفية الذين لم يتموا بعد التحقق من هذا المشهد ، وأما كل المحققين من الصوفية فقد اعطوا كل حالة حكمها ، فاصلين بين التشبيه والتزييه ، جاعلين للروح حكمها من جهة فطرتها ، وعالمها المطلق ، وللعقل حكمه وعلمه من جهة عالمه المقيد ، رابطين بينهما بالرباط الألهى ، الذى وجدوده كما هو من وجهتى الحقيقة والخلقية وهو المعبر عنه عند بعضهم بمقام الحيرة ، ومن نظر إلى الصراط المستقيم بين هاتين الحالتين لوجد حالة ثالثة ، هى الجمع بين نهاية العقل المتصلة ببداية الروح ، وفى هذه الحالة يكون ناظراً بالعينين عين العقل والروح ، ومن ثم لا تكون حيرة مادام فى وسط الميزان نازلاً إلى كل من الكفتين بحكم كل واحدة كما فصلنا ، وهذا هو المعبر عنه بحق اليقين ، عند كل المحققين .

محمد الحريرى — بالنيابة العمومية

التصوف فى الماضى والحاضر

عجباً يصير مدى التصوف هكذا	شكا وريياً وامتهان معانى
ويبدل العلم الحكيم خرافة	هزواً وسخرية الزمان الجانى
ورياضه تسمى كوادى بلقع	خال من الأيكات والخلان
وشرا به العذب اللذيذ كأنه	سم زعاف لا سلافة حان

فعلى التصوف والطريق تحية	وعلى سنين قد مضت وزمان
وعلى أهيل العلم أرباب الوفا	من شيدوا أركانه بأمان
ضاع التصوف طعمة وضحية	للمدعين جماعة الحمران
وجماعة لا يفقهون حديثه	دخلوا بضعف عزيمة ودهان
وجماعة اتخذوا المظاهر حرفة	تركوا اللباب وأمسكوا بيمان

دخل الدخيل عليه لا عن رغبة	فيه ولكن سيق بالاحسان
يا ويلهم قد أفقدوه رواءه	ومهابة الارشاد والنبهان
وبهم توارى نوره وجماله	وجماله تشتاقه الثقلان
فالغيب من أهل الزمان وفعلهم	مهما بدا بين الورى بهوان

علي سالم عمار